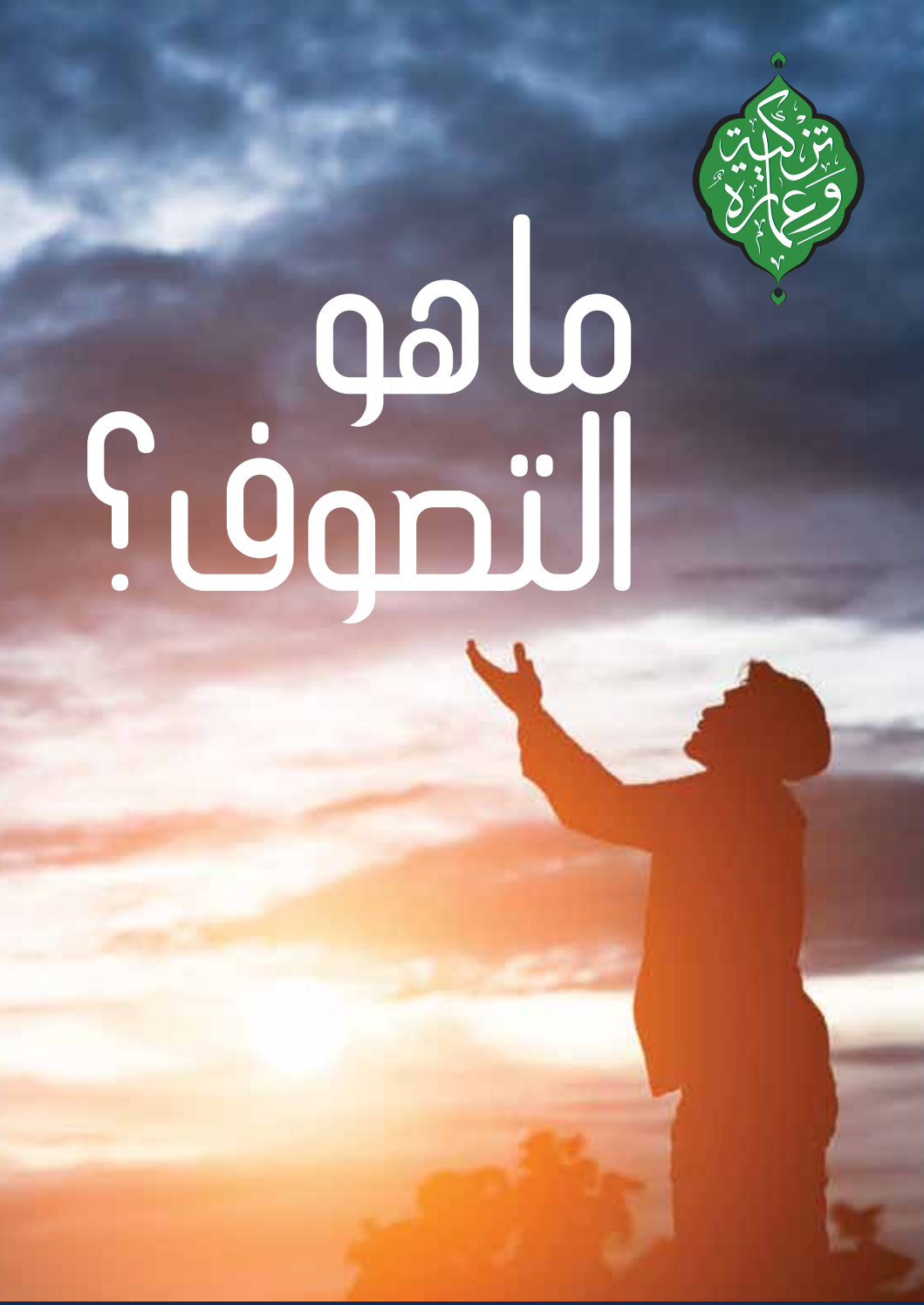

ما هو التصوف؟

ع مطوية رقم (٢) | مسلسل رقم (١٣٦) ٢٠١٩

مُبادَرات طابة
TABAH INITIATIVES
www.tabahinitiatives.org

ما هو التصوف؟

نسمع كثيراً هذه الأيام كلمة "التصوف" أو "الصوفية"، فماذا تعني كلمة التصوف؟

اشتقت كلمة التصوف من المصافاة على أرجح الأقوال، لأنها تصف حالة روحية يعيشها الصوفي مع مولاه سبحانه وتعالى يهيمن عليها الصفاء ويغيب عنها الكدر.

وهناك من ربط الكلمة بالصوف كذلك، لأن عادة الزُّهَّاد والعُبَّاد في الأمم السابقة كانت لبس الصوف واللبس الخشن.

وكل أوجه اشتقاق اسم التصوف مرتبطة بصدق التَّوَجُّه إلَى اللهِ والصفاء في معاملته، حتى قال أبو الفتح البستي رحمه الله تعالى:

تَخَالَفَ النَّاسُ فِي الصُّوفِيِّ وَاخْتَلَفُوا
قِدْماً فَظَنُّوهُ مُشْتَقًّا مِنَ الصُّوفِ
وَلَسْتُ أَنْحَلُ هَذَا الِاسْمَ غَيْرَ فَتًى
صَافَى فَصُوفِيَ حَتَّى سُمِّيَ الصُّوفِي

هذا بالنسبة لإشتقاق كلمة التصوف، أما حقيقة التصوف فهو العلم الْمَعْنِيّ بإصلاح القلوب وتزكيتها من الرذائل والعيوب لتصل لمرتبة الإحسان في المعاملة مع الله تعالى.

قال الإمام الْجُنَيْدُ رَحِمَهُ اللَّهُ متوفى ٢٩٧ هـ :

"التَّصَوُّفِ: "اسْتِعْمَالُ كُلِّ خُلُقٍ سَنِيٍّ، وَتَرْكُ كُلِّ خُلُقٍ دَنِي"

وقال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري متوفى ٩٢٦هـ :

"التَّصَوُّف: علمٌ يُعرَف به أحوال تزْكِيَة النفوس، وتصْفية الأخلاق، وتعمير الظاهر والباطن؛ لنيْل السعادة الأبدية."

وقال الإمام أحمد بن عجيبة متوفى ١٢٢٤ هـ :

"التصوف : هو علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، وتصفية البواطن من الرذائل، وتحليتها بأنواع الفضائل، وأوله علم، وأوسطه. عمل وآخره موهبة"

فالتصوف سبيل تحقيق مرتبة الإحسان التي نص عليها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث المشهور بحديث جبريل، حين سأله سيدنا جبريل عن الإحسان فقال : "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك".

(رواه البخاري ومسلم)

فهو حالة من معايشة العبودية لله سبحانه وتعالى ، ودوام التوجه إليه، يعيشها المؤمن بقلبه وروحه.

متى بدأ ظهور التصوف؟

حقيقة التصوف مشمولة في رسالات جميع الأنبياء، بداية من سيدنا آدم عليه السلام، وحتى سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فإن التصوف بمعنى مرتبة الإحسان المذكورة في الحديث، وبمعنى تزكية النفس عن الرذائل، وتصفيتها عن العيوب هو لب دعوة الإسلام؛ يقول الله سبحانه وتعالى:

" هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِم وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ "

(سورة الجمعة: ٢)

قال الإمام الرازي في تفسير هذه الآية:

(يُزَكِّيهِم) أيْ يطهرهم مِنْ خَبَثِ الشِّرْكِ، وَخَبَثِ مَا عَدَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، وَعِنْدَ الْبَعْضِ يُزَكِّيهِمْ أَيْ يُصْلِحُهُمْ، يعني يدعوهم إلى اتباع مَا يَصِيرُونَ بِهِ أَزْكِيَاءَ أَتْقِيَاءَ.

لماذا نحتاج التصوف؟

لأنه يندر وجود انسان خالي من آفات القلوب، وهي عيوب وأمراض أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نتخلص منها في قوله:

"وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ " (سورة الأنعام: ١٢٠)

مما ذكره الإمام الرازي في تفسير هذه الآية:

"ظاهرَ الإثْمِ أَفْعَالُ الْجَوَارِحِ، وباطنه أَفْعَالُ الْقُلُوبِ مِنَ الْكِبْرِ وَالْحَسَدِ وَالْعُجْبِ وَإِرَادَةِ السَّوْءِ لِلْمُسْلِمِينَ."

وبالتالي يجب علينا أن نتلمس السبيل الذي نتخلص به من هذه العيوب لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ووسيلة التخلص من هذه العيوب هي علم التصوف.

من أجل ذلك نصَّ الإمام الغزالي في مقدمة كتابه إحياء علوم الدين على أنَّ هناكَ قدرًا من علم التصوف واجبًا على كل مسلم ومسلمة، فقال متحدثا عن ربع المهلكات من كتابه المختص بأمراض القلوب:

"فإذا كان الغالب أن الإنسان لا ينفك عن دواعي الشر والرياء والحسد فيلزمه أن يتعلم من علم ربع المهلكات ما يرى نفسه محتاجاً إليه وكيف لا يجب عليه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

"ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِه"

وقال أيضا: "وأكثر ما ذكرناه في ربع المهلكات من فروض الأعيان، وقد تركها الناس كافَّةً؛ اشتغالاً بما لا يعْنِـي".

فعلم التصوف المأخوذ من القرآن والسُّنَّة، يرسم للإنسان منهجًا يتخلص به من أمراض القلوب، ويتحلى به بالأخلاق والأحوال الحسنة، طالبا بذلك أن يكون صاحب قلب سليم

" يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ " (سورة الشعراء: ٨٨-٨٩)

هل هناك أمثلة على ممارسة التصوف في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟

نعم؛ كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يرشد الصحابة إلى ضرورة سلامة القلب من العلل والآفات، ويدلهم على طريق التخلص منها. وفي رواية مشهورة عن سيدنا أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخبر صحابته على رجل يطلع عليهم من أهل الجنة ثلاث أيام متتابعات فكان نفس الرجل، فتتبعه سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص وصار يفتش عن حاله ليرى ما الميزة التي جعلته من أهل الجنة بشهادة سيدنا رسول الله، فلما لم يجد له عمل زائد عن أعمال الصحابة سأله عن سره فقال له:

" لا أَجِدُ فِي نَفْسِي لأحَدٍ من المسلمين غِشًّا، ولا أحسد أحدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاه".

(رواه الإمام أحمد في مسنده)

وأرشدهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم لفضيلة الإخلاص لله في العمل فقال:

"إِنَّ الله لا يَنْظُرُ إِلى أَجْسامِكُم وَلا إِلى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ" (رواه مسلم)

وأرشدهم كذلك لضرورة كظم الغيظ،وعدم إنفاذ الغضب فقال:

"مَا تَعُدُّونَ فِيكُمُ الصُّرَعَةَ ؟ قَالُوا: هُوَ الَّذِي لا تَصْرَعُهُ الرِّجَالُ، فَقَالَ: لا، وَلَكِنَّ الصُّرَعَةَ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ" (أخرجه أبو داود في السنن)

وحذرهم من خطر الكبر والغرور فقال:

" لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ" (رواه مسلم)

فكان إرشادُه صلى الله عليه وآله وسلم لصحابته يشمل جوارحهم وقلوبهم، وكما يأمرهم بطاعات الجوارح يأمرهم بطاعات القلوب، وكما يحذرهم من معاصي الجوارح يحذرهم من معاصي القلوب.

إن كان التصوف فعلا من القرآن والسنة، فما الحاجة إلى تسميته باسم مختلف؟ أليس في هذا تفرقة للأمة؟

ليس فيه تفرقة للأمة لأن جميع العلوم المستفادة من الشرع الشريف ظهرت المصطلحات والمسميات الدالة عليها بعد صدر الاسلام لتمييز العلوم بعضها عن بعض.

مثل ذلك علم الفقه ومصطلح الحديث والقراءات وأصول الدين والتصوف وغيرها من العلوم، فكلها مشمولة ومستمدة من الوحي الشريف ولكن تسميتها جاءت بعد ذلك.

إذًا فما ثمرة هذا التصوف في حياة الفرد والمجتمع؟

ثمرته أنه يَبني نفْسًا سَوِيَّةً، تعامل الله سبحانه وتعالى بحب وإخلاص وتحب الخير للخلق جميعًا، وتكون مؤهلة لحمل الأمانة التي كلف الله بها الانسان وهي خلافته على الأرض وعمارته لها بإتقان وإحسان. ومتى انتشرت هذه الحالة من التزكية بين البشر لا شك أنها ستكون سَبَبًا في الصلاح والإصلاح، ونشر الأخلاق الحسنة والمعاملة الطيبة بين جميع البشر، وقد تكون المخرج لما يعانيه العالم الآن من الفردية الشديدة، والأنانية المفرطة، والمادية الطاغية.

لماذا نرى من بعض أهل التصوف جهالات ومخالفات شرعية؟

مخالفة بعض المنتسبين للتصوف لمنهجه المنضبط بالشريعة وحقيقته السامية لا تقدح في سلامة هذا المنهج، لظهور الدخلاء في كافة العلوم الشرعية الأخرى، مثل الوضاعين في علم الحديث والمجسمة في علم العقيدة، ولم يكن هذا مبررا لترك هذه العلوم جملة.

الخلاصة

- علم التصوف علم شرعي شريف مستمد من القرآن والسنة
- حقيقة التصوف ظهرت من بداية بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم
- اسم التصوف اصطلح عليه بعد عهد النبي كبقية العلوم الشرعية
- نحتاج علم التصوف لتزكية نفوسنا وتطهير قلوبنا
- ثمرة التصوف بناء النفوس السوية ونشر الأخلاق الحسنة بين الخلق
- مخالفة بعض المنتسبين لحقيقة التصوف لا تقدح في سلامة منهجه